أحلام لها تاريخ

٥

أحلام النبى ﷺ فى القرآن العظيم

بقلم :

أ. د. محمد سيد أحمد المسير

أستاذ العقيدة والفلسفة

كلية أصول الدين - جامعة الأزهر الشريف

الطبعة الثانية

٢٠١٦ م

دار المعارف

تأسست ١٨٩٠

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة
سعيد عبده مصطفى

كتب أطفال وناشئة
سلسلة أحلام لها تاريخ

تصميم الغلاف:
أحمد عبد النعيم

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكتروني بدار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - جمهورية مصر العربية

المسير، محمد سيد أحمد.
أحلام النبى صلى الله عليه وسلم فى القرآن العظيم / بقلم: محمد سيد أحمد المسير.
- ط 02 - القاهرة: دار المعارف، 2015.
32 ص، 19.5 سم (أحلام لها تاريخ؛ 5)
تدمك 0 8283 02 977 978
1 - الأحلام فى القرآن.
2 - قصص القرآن.
3 - السيرة النبوية.
(أ) العنوان.
تصنيف ديوى: 229.4135
رقم الإيداع: 25529/ 2015
رقم الكونجرس: 2 - 840062 - 01 - 2
رقم أمر التشغيل: 17/ 2015/ 7

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف.

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى..

أما بعد:

فهذا هو الجزء الخامس منْ سلسلة «أحلام لهَا تاريخ» يحمل عنوان «أحلام النبى ﷺ فى القرآن العظيم» وهو يشرح كيف بدأ الوحى الإلهى لسيدنا محمد ﷺ بالرؤيا الصالحة.

ثم يذكر حَدَثين كبيريْن غَيَّرا مجرى التاريخ وهما:

١ - غزوة بدر الكبرى فى العام الثانى للهجرة.

٢ - صُلح الحديبية فى العام السادس للهجرة.

وكان نصر الله للمؤمنين فى غزوة بدر، وأداء عمرة القضاء تصديقًا لرؤى النبى ﷺ.

والله ولى التوفيق..

أ. د. محمد سيد أحمد المسير

الرؤيا بداية الوحى

هيَّأ الله تعالى رسولَهُ محمدًا ﷺ لتلقِّى الوحْى، فلمْ يُصبه شىءٌ مِنْ سِفَاح الجاهليَّة، وَاشتهرَ فى قومه بأنه الصادقُ الأَمين، ووقعَت مُبشراتٌ كثيرةٌ قبلَ بعثته مثل حفْظ الكعبة المشرَّفَة من هَجمة الأحْباش، وبركتهُ عند مُرضعته حَليمة السَّعدية، ومَا رآهُ مَيْسرةُ خلالَ رحلةِ التجارةِ بمَالِ السَّيدة خَديجة إلى الشَّام.. وغيرِ ذلكَ كَثير..

لكنْ أخرجَ الإمامُ البخارىُّ فى صحيحه حديثًا رَوَتهُ السيدةُ عائشةُ تخبرنَا عنِ الإعداد النهائىِّ لتلقِّى الوحْى فتقولُ:

«أولُ مَا بُدىءَ به ﷺ من الوحْى الرؤْيا الصَّالحة فى النوم فكانَ لاَ يرى رؤيَا إلا جاءَت مثل فلَق الصُّبح، ثم حُببَ إليه الخَلاء، فكانَ يخلُو بغارِ حرَاءَ فيتحنَّثُ فيه- وهو التعبد - اللَّيالى ذَوَات العدد قبلَ أنْ ينزعَ إلى أَهله ويتزوَّدُ لذلكَ ثُمَّ يرجعُ إلى خديجةَ فيتزوَّدُ لمثلهَا حتَّى جاءهُ الحقُّ وهوَ فى غارِ حِرَاء»..

لقدْ مكثَ الرسولُ ﷺ الأشهرَ الستةَ الأخيرةَ لاَ يرى رؤيَا إلاَّ تحققَّتْ كما رآهَا..

والرؤيـا الصالحةُ أى الصَّادقة التى ليـسَ فيهَا تخليطٌ ولاَ أوْهَام ولا حَديث نفْـسٍ، وَتتحققُ هذه الرؤيَا تحققًا واضحًا يُشـبه ضيَاء الصُّبح الذى يأتى بعدَ الظلمةِ الحالكة..

فالنبوةُ بدأَتْ بالرؤيَا فى شـهرِ ربيع الأَوَّل عَلى رأْس أربعينَ سنةً منْ مولدِ سـيدنَا محمدٍ ﷺ ثُمَّ كانَ الوحْىُ يقظَة فى شـهرِ رمضانَ بلقَاءِ جبريلَ الأَمين مَلك الوحْى ونُزول قَوْل الله تعالى:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة العلق، الآيات: ١-٥).

وعبادةُ الرسولِ ﷺ قُبيل البعْثَةِ كانتْ خَلْوة وَاعتزالاً لباطلِ قومه وَوَثنيَّتهم، وكانتْ فكرًا وتأمُّلاً فى ملكُوت السـمواتِ والأَرض، وَكانتْ نظرًا إلى الكعبةِ المشـرَّفةِ منْ قمةِ جَبَل النُّور فى مَحاولة لاستنْطَاقِ التَّاريخ عنْ قيمةِ هـذَا البيْتِ العتيقِ وَقيمه، كَمَا كانتْ عبَادته ﷺ إطعامًا للمسَاكين.

وَيروى ابنُ إسْحق أنَّ رسول الله ﷺ كانَ يُجَاورُ ذلكَ الشهرِ منْ كُلِّ سـنةٍ فِى غَار حرَاء يطعمُ مَنْ جاءهُ من المسـاكينِ، فإذَا قضَى

رسولُ الله جوارَهُ مِنْ شهرِه ذلكَ، فأولُ ما يبدأُ به الكَعبة قبلَ أنْ يدخلَ بيتَهُ فيطُوف بها سبعًا أَوْ مَا شَاء الله مِنْ ذلكَ، ثُمَّ يرجعُ إلى بيتِه وتستقبلهُ زوجُهُ الحَانية السَّيدةُ خديجةُ رضِىَ الله عنها أحسَنَ اسْتقبالٍ..

وَفِى اليوم السَّابع عَشَر من شهرِ رمضَانَ للسنةِ الحَادية وَالأربعين لميلادِ المصطَفَى الكريم - الموافق السادس من شهْر أُغسطس سنة عشـــر وستمائة لميلادِ المسيح كانَ يومُ الوحِى الأولِ وَمجِىء الحقِّ وَلقَاء جبْريل.

رؤيا يوم بدر

قالَ الله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

(سورة الأنفال، الآيات: ٤٣، ٤٤).

تمهيد:

انتقلَ المسلمونَ بعدَ الهجرةِ إلى المدينةِ المنورَةِ، وتركُوا ديارهُم وأموالَهُم بمكةَ فرارًا بِدِينهِم وإنقاذًا لأنفسهم، وكانَ المسلمونَ قبلَ الهجرةِ لا يملكونَ أسبابَ القوةِ التى يردُّون بهَا طغيَانَ أهلِ مكةَ وَجَبروتهم..

فلمَّا استقرُّوا بالمدينةِ وحصَّنوا أنفُسهم بمؤازرَةِ إخْوانهم الأنصار أهْل المدينةِ، بدأُوا يتطلَّعونَ إلى مكةَ وَمَا تركُوهُ فيهَا، وشَاء اللَّه أنْ يسمعَ المسلمونَ بقَافلَةٍ تجاريَّةٍ لأهْلِ مكَّةَ يقودهَا أبُو سُفيان فى طريقِ العودةِ مِنَ الشَّامِ إلى مكَّة، فانتدبَ الرسولُ ﷺ المسلمينَ

إلى اعتـراضِ القافلةِ لعلَّ الله يجعلهَا غنيمةً للمسْـلمينَ تعوضهم عمَّا تركوهُ من ديَارٍ وَأمْوالٍ..

فبلغَ الخبرُ أَبَا سُفيان فاتخذَ طريقًا أخرى ليسَتْ معْهُودة، وبعثَ إلى أهلِ مكةَ يَسْـتنفرهُمْ لإنقَاذِ القافلةِ، فتجهَّز الناسُ سراعًا وكانُوا بينَ رجليْن إمَّا خَارج بنفسـهِ وإمَّـا بَاعث مكانَهُ رجلاً، ولمْ يتخلَّفْ منْ زُعماء مكةَ أحدٌ إلاَّ أَبَا لهبٍ..

وأثناءَ خُروج أهْل مكةَ جاءَهم الخبرُ بنجاةِ القافلةِ فأصرُّوا عَلى مُواصَلة السَّير إلى المدينةِ وقالَ أَبُو جهلٍ:

والله لا نرجعُ حتَّى نردَ بدرًا - مكانُ بئرٍ قريبٍ منَ المدينةِ - فَنُقيم عليهَا ثلاثًا، فننْحَر الجُزُر[1] ونطعمُ الطعامَ ونَسقى الخمْرَ وَتَعْزِفُ علينَا القيَان[2] وتسمعُ بنَا العربُ وبمسيرنَا وجمعنَا فلاَ يزالونَ يَهَابُوننَا أبدًا بعدهَا..

موقف المسلمين:

أَفْلتـت قافلةُ قريشٍ التِى خرجَ المسـلمونَ لاعتراضهَا وجَاءهم الخبرُ أنَّ جيشَ قُريش عَلى مقربةٍ منَ المدينةِ ولمْ يكونُوا يتوقَّعُون قتَالاً، هنَا جمعَ الرسـولُ ﷺ المسلمينَ وعرضَ عليهم الأمرَ وطلبَ مِنهم النَّصيحَةَ، فقالَ المقدادُ بنُ عمرو - وهوَ منَ المهاجرينَ -:

---

(١) الجُزُرُ جَمْع جَزُورٍ وَهِىَ الإبل.

(٢) القِيَانُ جمعُ قَيْنَة وَهِى الأَمَةُ مُغنية أَوْ غير مُغنِّية..

يا رسـولَ الله امضِ لما أمركَ الله فنحنُ معكَ، وَالله لا نقولُ لكَ كما قالتْ بنُو إسْـرائيل لموسَـى: اذهبْ أنتَ وربكَ فَقاتلاَ إنَّا ههنَا قاعدُونَ، وَلكن اذهبْ أنتَ وربكَ فَقاتلاَ إنَّا معكمَا مُقَاتلون، فوالذى بعثكَ بالحقِّ لوْ سـرتَ بنَا إلى برك الغماد[1] لجالدنَا معكَ منْ دونه حتَّى تبلغهُ.

فقالَ لهُ الرسـول ﷺ خيـرًا ودعَا لهُ ثم أرادَ الاسْـتيثاقَ منْ أمرِ الأنصارِ أهْـل المدينة، وهُم الكثرةُ الغالبةُ وقدْ بايعُوا رسـول الله ﷺ بيعـةَ العقبةِ قبلَ الهجرةِ عَلى أَنْ ينصروهُ فى ديَارهم فتخوفَ الرسول ألاَّ يسـيرُوا معهُ خارجَ المدينةِ لملاقَاة قُريش عندَ بئرِ بدْرٍ فقالَ: أَشيرُوا علىَّ أيهَا النَّاسُ.

فقامَ سعدُ بنُ معَاذ خطيبًا وقالَ: لقدْ آمنَا بكَ وصدَّقناكَ وشهدنَا أنَّ مَـا جئتَ بـه هوَ الحقّ، وَأعطيناكَ على ذلـك عهودنَا ومواثيقنَا عَلى السَّـمع والطاعة، فامْضِ يَا رسـولَ الله لمَا أَردتَّ فنحنُ معكَ، فَوَالذى بعثكَ بالحقِّ لَوْ اسْـتعرضتَّ بنَا هذَا البحْر فخضتهُ لخضناهُ معـكَ مَا تخلَّفَ منَّا رجلٌ واحدٌ، ومَا نكـرهُ أَنْ تلقى بنَا عدوَّنَا غدًا، إنَّـا لصُبُرٌ فِى الحربِ صُدُق فِى اللِّقاءِ، لعلَّ الله يريكَ منَّا مَا تقرُّ بهِ عينكَ فسِرْ عَلى بركةِ الله..

---

(١) موضع بعيد عن المدينة بناحية اليمن.

فتهلَّلَ وجهُ رسولِ الله ﷺ وقالَ: سيرُوا وأبشرُوا فإنَّ الله قَدْ وَعدنى إحْدى الطائفتيْن، أي الفوزِ بالقَافلةِ، أو النصرِ المؤزَّرِ عَلى جَيْش قُريْشٍ كما قالَ تعالَى:

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾ (سورة الأنفال، الآية: ٧).

لقدْ كانَ بعضُ المسلمينَ يفضلُونَ الظفرَ بالقافلةِ منْ غيرِ قتالٍ، لكنَّ الله سبحانهُ وتعالى أرادَ لَهم النصرَ المؤزّرَ بهزيمةِ المشركينَ هَزيمة منكرةً غيَّرت وجهَ التاريخِ.

رؤيا النبى ﷺ :

وقعت معركةُ بدرِ الكبرى فِى السَّابع عَشَر منْ رمضانَ فِى العام الثانى للهجْرَة، وكانَ عددُ المشركينَ ألفًا أَوْ يزيدُ، وعددُ المسلمينَ ثلاثمائة وَبضعة عشر..

فلمَّا حميتِ المعركةُ وَاشْتدَّ القتالُ لجأَ الرسولُ ﷺ إلى الله ضارعًا يناشدهُ ما وعدَ منْ نصرٍ، فالدعَاءُ مخُّ العبَادة، ودعَاء المرءِ وَقت الشدة مُستجاب، والأسبابُ الماديةُ وإنْ كانتْ ضَرورية لاَ يجوزُ التفريطُ فيهَا فإنَّ اسْتشعارَ القلبِ بالملأِ الأَعْلى أمرٌ حَتمى

لروعَة النصرِ وجَلاله.. وكانَ الرسولُ ﷺ يقول فِى دعائه الضَّارع: اللهـمَّ هذه قريـشٌ قدْ أقبلـتْ بخيلائهَا وفخرهَا تحـادُّكَ وتكذِّبُ رسولَكَ.. اللهمَّ فنصركَ الذى وَعدتَّنى..

اللهمَّ أحنهم الغَدَاة.. أَىْ أَهْلكهم..

اللهمَّ إنْ تَهلك هذه العصَابة - يعْنى المسلمينَ - لاَ تُعبد..

وظلَّ الرسـولُ ﷺ يهتفُ بربه مَادًا يديْه، مُستقبلَ القبْلة حتَّى سـقطَ رداؤُه عنْ منكبيْـه، فأتاهُ أبو بكرٍ فأخـذَ رداءَهُ وألقاهُ عَلى مَنكبيْـه، ثمَّ التزمهُ[1] منْ ردَائه فقالَ: يا نبىَّ الله كفاكَ تُناشـدُ ربَّكَ فإنهُ سَينجزُ لكَ ما وعدَكَ.. ثُمَّ خفقَ الرسولُ ﷺ خفقَةً[2] ثمَّ اسْتيقظَ وكأنَّ شـقَّ وَجْهه القَمر وقالَ: هذَا جبْريل آخذ برأْس فرسِـهِ وعليْهِ أداةُ الحربِ.

وكأنِّى أنظُر إلى مَصَارع القوْم.

ورأَى الرسولُ ﷺ المشركينَ قلةً رغمَ كثرتهم فِى الوَاقع..

ثُمَّ اسـتيقظَ الرسولُ ﷺ وقالَ: أَبْشر يَا أَبَا بكر ، ونزلَ قولُ الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ (سـورة الأنفال، الآية: ٩).

---

(١) ضمهُ إليه وَاحْتضنَهُ.

(٢) أى نامَ نومَةً خَفِيفَةً.

وخرجَ الرسولُ ﷺ إلى القوم وهوَ يقولُ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ (سورة القمر، الآيات ٤٥-٤٦).

إنَّ رؤيَا النبيِّ ﷺ تضمَّنَت ثلاثَ بُشرَيَات:

الأولى: رؤيةُ المشركينَ قلَّة وذلكَ كيْ يَعْظم إقدَامُ المسلمينَ وَاسْتبسالهم، وهذَا هوَ صريحُ القرآنِ فى الآية:

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾

(سورة الأنفال الآية ٤٣).

فلوْ ظلَّ إحساسُ المؤمنينَ بكثرةِ عَدُوهم لخارَتِ القوةُ وتقاعسَ البعضُ ودبَّ الخلافُ فى صفوفِ المجَاهدينَ..

وفى هذَا الوقت كانَ المشركونَ ينظرونَ إلى المسلمينَ نظرةَ اسْتخفافٍ وَيَرَوْنهم قلةً يُبَادونَ فى أولِ مواجهةٍ حتَّى قالَ أَبُو جهلٍ لجنودِ المشركينَ: إنَّهُم أكلةُ جَزُورٍ، خذُوهم أخذًا وَارْبطوهُم بالحبالِ.

أَىْ أنَّ المسلمينَ قلةٌ يَكفيهم لحمُ جملٍ واحدٍ أَوْ ناقة وَاحدةٍ، وكانَ ذلكَ فى بدءِ المعركةِ وهوَ المعبرُ عنهُ بقولِ الله تعالى:

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الأنفال، الآية: ٤٤).

فلمَّا عَظُم القتالُ وتلاحمَ القومُ أصابَ المشركينَ رعبٌ شديدٌ لأنَّ الله تعالَى كثَّر الملسمينَ فِى أعينهم حتَّى ظنُّوا أنَّ المسلمينَ ضعف عَدَدُهم، قالَ الله جل شأنه:

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران، الآية: ١٣).

الثانية: نزولُ الملائكة يومَ بدرٍ، وهذَا هو صَريح القرآن فى قوله تعالَى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ (١) ﴿٩﴾ ﴾ (سورة الأنفال، الآية: ٩).

لكنَّ السؤالَ: هَلْ قاتلت الملائكةُ معَ المسلمينَ وصَرعت المشركينَ؟!

الرأىُ الذى عليه المحققونَ من العلماءِ والذى تطْمئنُّ إليه النفسُ ويُسَاير المنطقَ الشَّرعى فى اتخاذ الأسبَاب وَتكليف المؤمنينَ بالدفاعِ عَنْ دِينهم وَمُقدساتهم يقومُ عَلى أنَّ الملائكةَ

(١) مُتَتَابعينَ يأتِى بعضهُم فِى أثرِ بَعْضٍ..

لمْ تُمارسْ قتالاً وَإنما كانَ نزُولهم تثبيتًا للمؤمنينَ، ودعمًا لإرَادتهم القتَاليَّة وحثًّا لَهم عَلى المضيِّ قُدمًا فى المعركةِ، وَبُشرى لَهُم بأنَّ النصرَ حَليفُهم[1]..

قالَ تعالى:

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران، الآية ١٢٦).

الثالثة: تحديدُ الرسولِ ﷺ - بناءً عَلى رؤياهُ لمواقعِ قَتْلى المشركينَ، وكانَ يقولُ لأصحابه: هذَا مصْرعُ فلاَن، وهذَا مصرعُ فلانٍ، ولاَ شَّك أَنَّ ذلكَ خبرٌ مِنْ وراءِ الغيبِ حملتهُ هذه الرؤيَا النبويَّةُ الصَّادقة..

وَلمَّا انتهتِ المعركةُ وتُركَ قتلَى المشركينَ ثلاثًا جَاءهُم الرسولُ ﷺ ووقفَ أمامَ جُثثهم وَنَاداهم قائلاً:

يَا أَبَا جهْل بنِ هِشَام، يَا أمية بن خلف، يَا عُتبة بن ربيعَة، يَا شَيْبَةُ ابن ربيعَة: أليسَ قَدْ وجَدتُّم ما وَعَدكم ربكُم حقًّا؟!

فإنِّى قَدْ وجدتُّ مَا وعدَنى رَبِّى حقًّا.

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجعَ كتابنا «عالم الغيب فى العقيدة الإسلامية»، ص ٨٣ ط نهضة مصر.

فسمعَ عمرُ قولَ النبيِّ ﷺ فقالَ:

يَا رسولَ الله كيفَ يسمعونَ وأَنَّى يجيبونَ وَقَدْ جيفُوا؟

فقالَ: والذى نفسى بيدهِ مَا أَنتم بأسمعَ لِمَا أقولُ مِنْهُمْ، وَلكنَّهُمْ لاَ يقدرونَ أَنْ يُجيبُوا.

لقدْ تحقَّقت رؤيَا رسـول الله ﷺ وأَسْفرتْ معركةُ بدرٍ الكبرى عنْ نَصرٍ مُؤزَّرٍ للمسـلمينَ وهَزيمةٍ مُنكرةٍ للكافرينَ، وَلقدْ سـمَّى القرآنُ يومَ بدرٍ يومَ الفرقَان تغيَّر فيهِ مَجْرى التاريخ، قالَ تعالى:

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ (سورة الأنفال، الآية: ٤١).

وَامْتنَّ الله عَلى المسلمينَ بهذَا النصرِ العظيم فقالَ:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (سورة آل عمران، الآية ١٢٣).

رؤيا نذر وعقاب

١ ـ رؤيا عاتكة:

وقعتْ لأهـلِ مكةَ رُؤًى قبيْل مَعركةِ بـدرٍ تحقَّقتْ وَكانت نذرًا لَهُم بمصَائبهم التى حلَّت بهم فيمَا بَعْد..

ومـنْ هذهِ الرُّؤَى، رُؤيَا عَاتكة بنت عبد المطلب عَمَّة الرسـولِ ﷺ ولم تكُن مُسلمة يومئذٍ..

لقدْ رَأت رُؤيا أفزعتهَا فبعثتْ إلَى أخيهَا العبَّاس بن عبد المطلب فقالتْ لهُ:

يَـا أخِى وَالله لقـدْ رأيتُ اللَّيلةَ رؤيَا أفظعَتْنـى[١] ، وتخوَّفْتُ أَنْ يدخلَ عَلى قومكَ منهَا شرٌّ وَمُصيبَة فاكتمْ عَنِّى مَا أُحدثكَ بِهِ.

قالَ لهَا العباسُ: وَمَا رأيت؟

قالـتْ: رأيتُ راكبًا أقبلَ عَلى بعيـرٍ لهُ حتَّى وقفَ بالأبْطحِ[٢] ثُمَّ صرخَ بأعْلَى صَوْتـه: ألاَ انفُرُوا يالغُدُر[٣] لمصَارِعكم فِى ثلاَث، فَأَرى الناسَ اجْتمعُوا إليْهِ، ثُمَّ دخَل المسْـجدَ[٤] وَالنَّـاس يتبعونهُ، فبينمَا

---

(١) أى اشْتدَّتْ عَلَىَّ.

(٢) مَجْرى سَيْل ومطر بمكَّة.

(٣) جمع غدُور، والمعنى إن لم تنفِرُوا تكُونُوا غَادِرينَ ظالمينَ لقوْمكُم.

(٤) الكعبة المشرفة.

هُم حولـهُ مَثَل[1] به بَعيرُهُ عَلى ظهْرِ الكَعْبة، ثمَّ صرخَ بمثْلهَا: ألا انفِروُا يَالَغُدُر لمصَارِعكـم فِى ثلاثٍ، ثمَّ مَثَل به بعيرُهُ عَلى رأْسِ أبـى قُبيْس[2] فصرخَ بمثلهَا ثمَّ أخذَ صخرةً فأرْسَـلَها، فأقبلَتْ تهوى حتَّى إذَا كانتْ بأسْـفل الجبلِ أرْمضت[3] فمَـا بقىَ بيتٌ مِنْ بيوتِ مكَّة وَلاَ دَار إلاَّ دخلتهَا منهَا فَلقَة..

قـالَ العباسُ: واللهِ إنَّ هذه لرؤْيَا، وَأنـتِ فَاكْتميهَا ولاَ تذكْريهَا لأَحدٍ.

وشاعَ أمرُ رُؤْيَا عَاتكة وَاسْتقبلهَا الناسُ برعْب شديدٍ جَعَلت زعماءَ مكَّةَ يتطاولُونَ عَلى بنِى عبد المطلب حتَّى قالَ أبُو جهلٍ للعَبّاس:

يَا بَنى عبد المطلب متَى حَدَثت فيكُم هَذه النَّبيَّة؟!

أَمَا رَضيتُم أنْ يتنبأَ رجالكُم حتَّى تتنبَّأ نِسَاؤُكُم؟!

واقترحَ أبُو جهلٍ اقتراحًا هُوَ:

سَـنتربَّصُ بكم هذه الثلاَث فإنْ يكُ حقًّا مَا تقولُ فسيكونُ وَإنْ تَمْضِ الثلاثُ ولم يكنْ منْ ذلكَ شىءٌ نكتبُ عليْكُم كتابًا أنكُم أكذبُ أهلِ بيتٍ فِى العَربِ..

---

(١) قامَ بِهِ أىْ وقفَ بِهِ بعيرُه عَلى ظهْرِ الكعبةِ.

(٢) جَبلٌ قريبٌ منَ الكعبةِ.

(٣) أىْ تفتَّتَ.

ورجعَ العباسُ مهمومًا فاسْتقبلتهُ نساءُ عبد المطلب قَائلاتٍ:

أقررتُم لهذَا الفاسـق الخَبيثِ أنْ يقـعَ فِى رجَالكم ثمَّ قدْ تناوَلَ النسَاءَ وأنتَ تسمعُ ثُمَّ لمْ يكنْ عندكَ غيَرٌ[1] لشىءٍ ممَّا سَمعتَ؟!

فبَاتَ العباسُ مهمومًا وأصرَّ عَلى أَنْ يقصدَ أبَا جهلٍ لينالَ منهُ.

يقولُ العباسُ:

فغـدوتُ فِى اليوم الثالـثِ منْ رُؤْيا عَاتكة، فدخلتُ المسـجدَ فرأيتُه، فوَالله إنِّى لأمْشِـى نحوهُ أتعرضُهُ ليعودَ لبعْضِ ما قَالَ فأقعُ بـه، وكانَ رجلاً خَفيفًا، حديدَ الوجْه، حديدَ اللِّسـانِ، حديدَ النظرِ[2] فإذَا به قدْ خرجَ نحوَ بابِ المسجدِ يَشْتدُّ..

فقالَ العباسُ فِى نفسه:

ما لَهُ - لعنهُ الله - أكلُّ هذَا فَرَقٌ[3] منِّى أَنْ أُشَاتمهُ..

لكنَّ الموقفَ كانَ أعمقَ منْ هذَا وَأخْطَر، لَقَدْ سـمعَ أَبُو جهلٍ مَا لمْ يَسْمعْهُ العباسُ، سمعَ رجلاً يُسمَّى ضَمْضَم بن عمرو الغفَارى وهو يصرخُ ببطْنِ الوَادى وَاقفًا عَلى بَعيره، قدْ جَدَعَ[4] بَعِيرَهُ وحوَّلَ

---

(١) إنكارٌ وَغيْرَةٌ.

(٢) حديدَ الوجْه أى مُتجَهِّمَ الوجْه، وحديدَ اللِّسان أىْ سَليطه يتكلمُ بفَاحشِ القوْل، وحديدَ النظر قويَّهُ.

(٣) الفَرَق: الخوف.

(٤) جَدَعَ بَعيرهُ: قَطَع أنفهُ، وفعْلُ هذِه الأشْيَاء يومئذٍ للإعْلام بهوْلِ الكَارثةِ التِى تحلُّ بهم.

رحلهُ وشـقَّ قميصَهُ وهو يقول: يا مَعْشر قريش اللَّطِيمَة.. اللَّطِيمَة، أمْوَالكم معَ أبى سُـفيان قدْ عَرضَ لهَا مُحمدٌ فِى أصْحابِه، لاَ أَرَى أنْ تدركُوهَا، الغَوْث.. الغَوْث..

ثمَّ كانَ مَا كانَ منْ خُروج قُريش وذهَابهم إلى بدرٍ ووقُوع المعركة وَانتهائهَا بهزيمة مُنكرَة لَمْ تدعْ بيتًا فِى مكَّةَ إلاَّ حلَّت بهِ مُصيبةٌ.. قتلاً أَوْ أسْرًا أَو جرحًا.. وتحقَّقت رُؤيَا عَاتكة بنت عبد المطلب[1].

توضيح:

١ - عبـدُ المطلب هو جدُّ رسـولِ الله ﷺ أنجـبَ منَ الذكورِ عَشْرة ومنَ البناتِ ستًا، وَهُم:

عبـد الله، وهوَ أبُـو النبى ﷺ، والزُّبير، وأَبُـو طالب، والعبَّاس، وضرار، وحَمْزة، والمقوم، وأبو لهب واسـمه عبدُ العزَّى، والحارث، والغَيْداق واسمه حَجْل.

والبنات هن: عَاتكة، وأُميمة، والبَيْضـاء، وبرة، وصَفية، وَأَرْوَى، وهؤلاء الذكورُ والإناثُ لأمهاتٍ شَتَّى.

وقد ماتَ بعضُ هؤلاءِ قبْل البعثـةِ المحمديَّة، أمَّا الذينَ أَدْرَكُوا البعثةَ فمنْهم منْ آمنَ وَمنهم منْ كَفر.

---

(١) راجع غزوة بدر الكبرى بتفاصيلهَا فِى سيرة ابنِ هِشَام.

والذينَ آمنوا قسمان: قسمٌ آمنَ مبكرًا فِى أوائلِ الدعوةِ مثْل حمزة، وقسمٌ آمنَ مُتأخرًا بعدَ الهجرةِ مثل العباس.

والذينَ كَفروا قسمان: قسمٌ ظلَّ يدافعُ عنِ ابنِ أخيهِ ويتحمل البأسَاءَ معهُ مثل أَبِى طالب، وقسمٌ عَانَدَ وأبغضَ وأسَاء مثل أبِى لهبٍ الذى نزلتْ فِى حقهِ سُورةٌ تُتْلَى إلى يومِ القيامةِ تُسمى سُورة المسدِ وهِىَ السُّورة الحَادية عَشْرة بعدَ المائةِ من سُوَرِ القرآنِ العظيم..

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾

(سورة المسد، الآيات: ١-٥).

٢ - مُلخصُ رؤْيَا عَاتكة أنهَا رأتْ رجلاً يركبُ بعيرًا وجاءَ إلى أهلِ مكَّة يُنذرهُم بالموتِ بعدَ ثلاثةِ أيَّام فالتفتَ الناسُ حولهُ كَىْ يعرفُوا حقيقةَ الأمرِ الذى يحملهُ هذَا الرَّاكب إليْهم، وَإذَا بالرجلِ يصعدُ عَلى قمَّةِ جَبَل أَبى قُبيْس القريب منَ الكعبةِ ويأخذُ صخرةً وَيُلقيهَا إلَى أَسْفل الجبلِ وَتتفتتُ الصخرةُ إلى قطعٍ صَغيرةٍ تَطَايرت إلى كلُ بُيُوتِ أهْلِ مكَّة..

وَتحقَّقَت هـذهِ الرؤيَا بمَا حدَث فِى غَـزْوَةِ بدرٍ الكُبرى عَلى النحوِ الذِى سـلفَ، ولم تكنْ عَاتكة يومئذٍ مُسْلمة، إلاَّ أنَّ رؤياهَا تحقَّقـت، فـإنَّ الرؤيَا الصَّالحـة فِى الأعـمِ الأغلـبِ للصَّالحينَ والمتَّقيـنَ، وعَلى نُدرةٍ تكونُ لغيرهمْ كما حدثَ لملكِ مصْر على عهْد يوسـفَ عَليه السَّـلام، فلمْ يكنْ هذَا الملكُ نبيًّا ولاَ وليًّا ولاَ عبدًا للهِ صَالحًا.

٢ ـ رؤيا ابن الصلت :

خرجتْ قُريش بكاملِ عَددِها وَعدَّتهَا، وأصَرَّت عَلى الذهابِ إلى المدينةِ بعْدَ علمهَا بنجَاةِ قَافلة التجارةِ القَادمَةِ منَ الشَّامِ..

ولمَّا نزلُـوا بالجُحْفةِ[1] للرَّاحة واسْـتعدادًا لمواصَلة الزحفِ إلى المدينـةِ رأَى أحدُهُم وهوَ جُهيم بن الصَّلت رُؤيَا مَنَاميّة فقالَ لمنْ حولـهُ: إنِّى رأيتُ فيمَا يَرى النائمُ، وإنِّـى لبينَ النائمِ واليقظَان، إذْ نظـرتُ إلَى رجلٍ قدْ أقبلَ عَلى فـرسٍ حتَّى وقفَ ومعهُ بعيرٌ لهُ ثُمَّ قالَ: قُتِل عُتبة بن ربيعَة، وشـيبَة بن ربيعَة، وأبُو الحكم بن هشَام وأميَّةَ بنَ خَلَف، وفلاَن وفلاَن، فعدَّدَ رجالاً من أشرافِ قُريْش..

(١) وَهِىَ مدينةُ رَابغ اليوم.

ثُمَّ رأيتهُ ضَرِبَ فِى لَبَّة[1] بَعيرِه، ثمَّ أَرسلهُ فِى العسكرِ فَمَا بَقى خبَاء منْ أخبيَةِ العسكرِ إلاَّ أصابهُ نضحٌ منْ دَمه..

فبلغَ ذلكَ أبَا جهْلٍ فقالَ: وهذَا أيضًا نَبىٌّ آخرُ منْ بنِى عبدِ المطلبِ، سيعلمُ غدًا مَنِ المقتُول إنْ نحنُ التقيْنَا.

وهكذَا كانتْ رؤيَا ابن الصلت وَاضحة ومفصلة ومحدَّدة ولمْ يصدقُهَا الناسُ يومئذٍ حتَّى جَاءتهم الكارثةُ التِى لحقتْ بِهِمْ جميعًا..

(١) لَبَّة البَعيرِ مَنْحَرُهُ أى المكانِ الذِى يُذْبح منهُ.

رؤيا الفتح المبين

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾

(سورة الفتح، الآية ٢٧).

الرؤيا:

استقرَّ المسلمونَ فى المدينة المنورة بعدَ الهجرة وبدأوا فى بناء الدولة وإعدَاد العدَّة، وخاضُوا معاركَ ردًّا للعدوَان ودفعًا للظلم وتأمينًا للدعوة، وبعدَ ست سنوات تطلَّعَ المسلمونَ إلى مكَّة أم القرى مَوطنهم الأصْلى..

وذات يوم رأى رسول الله ﷺ فى المنام أنهُ دخلَ مكةَ وطافَ بالبيتِ الحرامِ ومعهُ أصحابهُ مُحلِّقينَ رءُوسهم وَمُقصِّرينَ وفى أمنٍ وَأمانٍ..

وقوله تعالى «الرؤْيَا بالحقّ» لهُ مَعْنيانِ:

١ - صدْق الرؤيَا وخلُوهَا منْ أَضْغَاثِ الأحلامِ فقولهُ بالحقِّ مُتعلِّقٌ بالرؤْيَا..

٢ - قَسَمٌ بالحقِ الذى هوَ نقيضُ الباطلِ أَوْ بالحقِّ الذى هوَ منْ أسمَاء الله الحسنَى..

وعَلى المعنَى الأولِ يجوزُ الوقفُ عَلى قولهِ بالحقِّ هكذَا:

لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رسولهُ الرُّؤْيَا بِالحقِّ.

وعَلى المعنَى الثانى يجوزُ الوقفُ عَلى قولهِ «الرؤيَا» هكذَا:

لقدْ صَدَقَ اللهُ رسُولَهُ الرُّؤيَا..

ويكونُ قولهُ تعالى: «بالحقِّ» قسمًا لِمَا بعدهُ هكذَا:

بالحقِّ لتدخُلُنَّ المسْجِدَ الحرَامَ..

والحرامُ هوَ ما لاَ يحلُّ انتهاكهُ، فالله تعالَى قدْ عظَّم البيتَ وشرَّفهُ وجعلهُ حرمًا آمنًا ومثابةً للنَّاسِ..

وقولهُ تعالى:

«إنْ شَاءَ الله» تعليقٌ بالمشيئَة الإلهيَّة لتعليم العبادِ، وَفيهِ بيانُ أنَّ وقُوع الرؤيَا وتحققهَا منْ مَشيئَة الله وليسَ منْ قوة المسلمينَ وَتدْبيرهم.

وَقوله تعالى: «آمنينَ مُحلِّقينَ رءُوسَكُم ومُقصِّرينَ» ثلاثةُ أحوَال. فالأمنُ عندَ الدخولِ، والحلقُ أوِ التقصيرُ بعدَ الطوافِ والسَّعى. فبعضُ الصحابةِ مُحَلق وَبَعْضهم مُقصر لشعرِ رأْسِه..

وَفِى تقديم «مُحَلِّقينَ» عَلى «مُقصِّرينَ: بيانٌ لفضيلة الحلْقِ وأنهُ أكثرُ ثوابًا بالنسبة للرجَال، وقد جاءَ فِى الصحيح قولُ النبى ﷺ: «اللهمَّ اغفِرْ للمحَلِّقينَ. قالُوا: يَا رسولَ الله وَالمقصِّرينَ.

قالَ: «اللهمَّ اغفرْ للمحَلقين ثلاثًا، قالُوا يا رسولَ الله: والمقصرينَ، قالَ: وَالمقصِّرينَ».

أَمَّا النساءُ فقدْ أخرجَ أَبُو دَاود والبيْهَقى فِى سُننه عنِ ابن عباس رضى الله عنهما قالَ: قالَ رسولَ الله ﷺ:

«ليسَ عَلى النساءِ حلْقٌ وإنمَا عَلى النساءِ التَّقْصير».

إلى الحديْبية:

أخبرَ الرسولُ ﷺ أصحابهُ بالرؤيَا فآمنُوا على الفورِ بصدقهَا وخرجُوا قاصدينَ مكَّة يريدونَ أَداء العمرَة التى حرمُوا منهَا ستَّ سنواتٍ طوَال، وساقَ المسلمونَ الهدْىَ، وقالَ ﷺ: لاَ تدعُونى قريشٌ اليومَ إلى خطَّةٍ يَسْألوننى فيهَا صلةَ الرحم إلاَّ أَعْطَيْتهم إيَّاهَا.

ووصلَ المسلمونَ إلى مكانٍ قريبٍ منْ مكةَ يُسمى الحديْبيَة باسْم بئرٍ مَائيَّة هناكَ وتوالتِ المراسَلاَتُ بينَ المسلمينَ وَقُرَيْش، وفِى كلِّ مرةٍ يُؤكد الرسولُ الكريمُ أنهُ لَمْ يأتِ لقتالٍ، وَإنما جاءَ زائرًا للبيْتِ الحرامِ وَمعظِّمًا له..

وحاولتْ وفُود قريشٍ أنْ تتعرَّفَ عَلى قُوَّةِ المسلمينَ ومدَى تماسُكهم وَحَقيقة نوايَاهُم حتَّى قالَ عروةُ بنُ مسعودٍ الثَّقفى لقريْشٍ بعدَ جولةٍ منَ المفَاوَضَات:

يا معْشرَ قُريشٍ إنِّى قدْ جئتُ كسرى فِى مُلكه، وقيْصر فِى مُلكه، وَالنجاشى فِى مُلكه، وَإنِّى وَالله ما رأيتُ ملكًا فِى قوم قَط مثل محمدٍ فِى أصْحابِه، ولقدْ رأيتُ قومَا لاَ يسلمونهُ لشىءٍ أبدًا..

بيعة الرضوان:

ولمَّا طالتِ المفاوضَات آثر الرسولُ ﷺ أنْ يبعثَ إلى أهلِ مكة مندوبًا عنهُ يشرحُ لهم حقيقةَ الموقفِ فاختارَ عثمانَ بنَ عفَّان رضى الله عنهُ ليخبرَ أشرافَ مكةَ أنَّ المسلمينَ لَمْ يأتُوا لحربٍ وإنمَا جاءُوا مُعْتمرينَ، ومن غيرِ المعقُول أنْ يسمحَ لسائرِ العربِ وَيُمنع الرسولُ والمسلمونَ.

ولمَّا فرغَ عثمانُ مِنْ تبليغِ رسَالته قالُوا لهُ: إن شئتَ أَنْ تطوفَ بالبيتِ فطفْ. فقالَ عثمانُ: ما كنتُ لأفعلَ حتَّى يطوفَ بهِ رسولُ الله ﷺ..

وَاحْتبستْ قريشٌ عثمانَ بعضَ الوقتِ فَنُقل الخبرُ إلَى المسلمينَ عَلى أنَّ عثمانَ قُتل، عندئذٍ دعَا الرسولُ ﷺ المسلمينَ إلى البيْعة عَلى الثباتِ وعدمِ الفرارِ حتَّى يقْضى الله أمرًا كانَ مفعولاً.

فأقبلَ المسلمونَ بقلُوب ملؤهَا الإيمانُ واليقينُ وبايَعُوا رسولَ الله ﷺ تحتَ شجرةٍ بيعةً سُمِّيت بيعَة الرضوَانِ وسَجَّلهَا القرآنُ فِى قولهِ تعالَى:

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الفتح، الآيات: ١٨-١٩).

ومَا كادَ الأمرُ يصلُ مسامعَ قُريش وأنَّ المسلمينَ قد اسْتعدُّوا لخوضِ المعركةِ حتَّى أطلقُوا سراحَ عُثمان رضِىَ الله عنهُ وَبعثُوا سُهيْلَ بنَ عمرو يعرضُ للصلحِ والمهادنةِ..

وثيقة الصلح:

لقدِ اشتملتْ وثيقةُ الصلْح عَلى مجموعةِ بنودٍ منهَا:

- وَضْع الحرب عنِ الناسِ عَشر سنينَ يأمنُ فيهنَّ الناسُ ويكفُّ بَعْضهُم عنْ بعضٍ..
- مَنْ أَتى محمدًا منْ قُريش بغيرِ إذنِ وَليِّه ردَّه عَليهم، ومنْ جاءَ قريشًا ممنْ معَ محمدٍ لمْ يردُّوه عليْه.

- مَنْ أحبَّ أنْ يدخلَ فِى عقْدِ محمدٍ وَعهْده دخلَ فيهِ، ومنْ أحبَّ أنْ يدخلَ فِى عقْدِ قريشٍ وَعهْدهم دخلَ فيه..
- أنْ يرجعَ المسلمونَ عَامَهم هذَا فلاَ يدخلونَ مكَّة وحتَّى إذَا كانَ العَام القَابل خرجتْ قُريش عنهَا ودخلهَا المسلمونَ وأقامُوا بهَا ثلاثًا، مَعَهم سلاحُ الراكبِ، السُّيوف فِى القِرَبِ.

وَقدْ وقعتْ عندَ إرادةِ الصلحِ وكتابةِ الوثيقةِ مَوَاقف تجدرُ الإشارةُ إليهَا:

أولاً: دعَا رسول الله ﷺ علىَّ بنَ أبِى طالبٍ لكتابةِ وثيقَةِ الصُّلح.

فقالَ: اكتبْ: بسْمِ اللهِ الرحمنِ الرَّحيم.

فقالَ مندوبُ قريش سهيْل بن عمرو: لا أعرفُ هذَا وَلكن أكتبْ: باسمِكَ اللَّهم.

فقال الرسولُ الكريمُ ﷺ اكتبْ باسمكَ اللَّهم فكتبهَا..

ثُمَّ قالَ: اكتبْ: هذَا مَا صَالح عليه محمدٌ رسولُ الله سهيْلَ بنَ عُمْرو..

فقالَ سهيْل: لوْ شهدتُ أنكَ رسولُ الله لَمْ أقاتلْكَ، ولكنِ أكتبْ: اسمكَ واسْم أبيكَ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ اكتبْ:

هذَا مَا صالحَ عليه محمدُ بنُ عبد الله سهيْل بنَ عَمْرو..

وهكذَا كانتْ حكمةُ رسـولِ الله وعظَمةُ تفكيرِه وَإلهـام الله لهُ، فإنَّ هـذه الأُمور لا يترتَّب عليهَا ضررٌ معَ أنَّ فيهَا مصلحةً مرْجُوّة.. فالبسـملةُ وباسمكَ اللهمَّ بمعنًى واحد، وكذلكَ محمدُ بن عبد الله هوَ نفسـهُ محمدٌ رسـولُ الله، فتـرْكُ الوصْف لاَ يَضيـر، وليسَ فِى الوثيقةِ مَا يتنافَى معَ العقيدَة..

ثانيـا: ظنَّ بعضُ الصحابةِ ومنهم عمـرُ بنُ الخطاب رضى الله عنه أنَّ فى شروطِ الصُّلح إجحافًا بالمسْلمينَ، وجاءَ عمرُ إلى رسولِ الله ﷺ فقال - كما فِى صحيحِ مُسلم:

يا رسول الله ألسْنَا عَلى الحقِّ وهُمْ على الباطلِ؟!

قالَ: بلَى.

قالَ عمرُ:

أليسَ قتلانَا فِى الجنةِ وقتلاَهم فى النارِ؟!

قالَ: بَلَى.

قال عمر:

فلـمَ نُعطى الدَّنيـة فِى دينَنـا ونرجعُ ولمَّـا يحكُم اللـه بيننَا وَبينهُم؟!

فقال ﷺ: يا ابنَ الخطَّاب إنِّى رسولُ الله ولنْ يُضيعَنِى الله أبدًا..

وقدْ وضحَ الرسولُ ﷺ شرطَ منْ جاءَ مسلمًا إلى المشركينَ ولاَ يردُّونه فقالَ: إنهُ منْ ذهبَ منَّا إليهمْ فأبعدَهُ الله وَمَنْ جاءنَا منهمْ فسيجعلُ اللهُ لهُ فرجًا ومخرجًا.

تحقق الرؤيا:

لمَّا سارَ المسلمونَ عَام الحديبية إلى مكَّة لمْ يشكُّوا أَنَّ هذه الرؤيَا النبويَّةَ تفسرُ فِى رحْلتهم هذه وعَامهم هذَا، وحينَ وقعَ ما وقعَ من صُلح الحديبيةِ ورجعُوا دونَ أدَاء العمرةِ عَلى أنْ يَعُودوا منَ العامِ القابلِ قلقَ بعضُ الصحابةِ وتساءل عمرُ بنُ الخطَّاب وقالَ:

يَا رسولَ الله ألم تخبرنَا أَنَّا سنأتِى البيتَ ونطوف بهِ؟!

قالَ ﷺ بلَى، أَفأخبرتُكَ أنكَ تأتيهِ عَامك هذَا؟

قالَ عمرُ: لاَ.

قال ﷺ فإنكَ آتيه وَمطوف بهِ..

وفعلاً، فِى العام السابعِ وفِى ذِى القعدةِ أدَّى الرسولُ ﷺ والمسلمونَ عُمرةَ القضاءِ ودخلُوا مكةَ معتمرينَ مُلبِّين، ووقفَ المشركونَ يشهدونَ هذَا الموقفَ الرَّائع..

فلمَّا دخلَ رسولُ الله ﷺ المسجدَ اضبطعَ[1] بردائه وأخرجَ عَضُدَهُ اليمنَى وقالَ للمسلمينَ: رحمَ الله امرءًا أَرَاهم اليومَ منْ نفسه قُوة.. ذلكَ أنَّ قريشًا تحدثَتْ أَنَّ محمدًا وَأصحابَهُ فِى عُسرةٍ وجهْدٍ ومشقَّة وأصَابتْهم حُمَّى يَثْرب..

ثمَّ استلمَ الحجرَ الأَسْود وخرجَ يُهرولُ[2] ومعهُ الصحابةُ حتَّى إذَا واراهُ البيتُ الحرامُ منَ المشركينَ المحدقينَ به واسْتلمَ الركنَ اليمانى مَشى حتَّى الحجَر الأَسْود ثُمَّ هرولَ كذلكَ ثلاثةَ أشواطٍ ومَشَى بَاقِى السَّبْعَة..

وَتُسمى هذهِ العمرةُ التِى وقعتْ بعدَ سنة منْ رؤيَا النبى الكريم عُمرة القضاءِ أَوْ عُمْرة القصَاص، فالتسميةُ الأولَى باعتبارهَا قضَاء عنْ عُمرة الحديبيَة، والتسميةُ الثانيةُ باعتبارهَا قصاصًا عنْ صدِّ المشركينَ للنبىِّ وَصَحبه.

أَمَّا تَحرك المسلمينَ منَ المدينةِ إلى الحديبيةِ وَتَوْقيع وَثيقة الصلحِ وَعَودة المسلمينَ دونَ أَدَاءٍ للعُمرة فقدْ حُسبت عُمرة لأنَّ المسلمينَ قدْ نوُوهَا ثُمَ حُوصرُوا فتحلَّلُوا منهَا وَنيَّةُ المؤمنِ أَبْلَغُ منْ عمله.

---

(١) الاضْطِباعُ هوَ إدْخَالُ الرِداءِ تحتَ العضدِ اليمنَى وجعلَ طرفيْهِ عَلى منْكبهِ الأَيْسَر.

(٢) الهرْوَلَةُ هنَا معناهَا إسْراعُ المشْيِ معَ تقارُبِ الخُطَى وَلاَ يَثِبُ وَثبًا.

كانتْ رؤيَا رسولِ الله ﷺ وتحققها على النحوِ الذى ذكرنَا - نصرًا عظيمًـا وفتحًـا مُبينًا لما ترتَّبَ على ذلكَ من آثـارٍ كبرى فِى تاريخِ الإسْلاَم..

لقـدْ وَضَعَت الحربُ أوزَارهَا وَألْقَى الناسُ السـلاحَ وباتُوا آمنينَ فكثر الحديثُ عنِ الديـنِ الجديدِ وتلقَفتِ القلوبُ والعقولُ عقائدَ الإسلام وشرائعهُ التى تهدى للتى هىَ أقوم فدخلَ فى الإسلام خلالَ سنتيْنِ أَضْعَافٌ مُضَاعفة لمنْ آمنَ منْ قَبْل، لقدْ كانَ عددُ المسلمينَ الذينَ خرجُوا إلى الحديبيةِ ألفًا وَأربعمائة وبعدَ سـنتيْنِ وفِى فتحِ مكَّة كانَ عددُ المسلمينَ عَشرة آلاَفِ مُقاتل.

لقدْ قالَ ابنُ مسعود رضى الله عنه:

إنكم تعدُّونَ الفتحَ فَتْحَ مكَّة، ونحنْ نعدُّ الفتحَ صُلْح الحديبيَة.

وقالَ جَابرُ بن عبد الله رضى الله عنه:

ما كنَّا نعدُّ الفتحَ إلاَّ يَوم الحديبيَة.

وقالَ البرَّاءُ رضى الله عنه:

تعـدُّونَ الفتحَ فتـحَ مكَّة، وقدْ كانَ فتحُ مكَّـةَ فتحًا، ونحنُ نعُدُّ الفتحَ بيعَة الرَّضوَان يَوم الحديبيَة.